لمحة في حياة الانسان الاول

في العصر الظراني القديم

حفريات كسارعقيل[1] فوق انطلياس

بقلم الاب ج. فرانكلين يونغ اليسوعي
من جامعة فوردام (نيويورك)

في هذا العصر الجديد بلغت العلوم الطبيعية شأوًا بعيدًا من الرقي مثبتةً ان في طوقها حلّ العديد من المشاكل، الّا ما كان منها يوجه خاص منوطًا بالشؤون البشرية في العصور الاولى . وهناك مجموعة علوم تختص بهذا الموضوع الذي يظهر قليل الفائدة بعيد التطبيق عمليًا . وهذه المجموعة يمكن حصرها تحت عنوان واحد هو : « درس الآثار البشرية القديمة » او تحت عنوان آخر اقرب للفهم وهو: « علم الانسان الاول » . بذلك يمكننا العود الى ما كان عليه الانسان في العصر السابق للتاريخ المكتوب بزمن مديد من مثل كيف كان يعيش، وماذا كانت ادوات العمل التي اوجدها للاستعانة بها في معيشته ، وانواع المآكل التي كان يتغذى بها ، واية بيئة اقليمية كانت تلائم نموّه ، وما هي المدة المفترضة لعدد سني حياته .

كل هذه الشؤون تختص بدراسة الانسان الاول ، وهي بعيدة عن شؤون العالم الحديث ، وتطوّر السياسة فيه ، ونفوذ شعوبه ورقيّ تاريخه . بيدَ ان عالمنا هذا الحالي قد أسس على ذلك الماضي البعيد المكتنف بالغموض والنسيان ، الشبيه بجزيرة في عرض البحر راسخة في عمق المياه على صخر من مرجان متواتر عن الانظار .

---

١) تبعد كسار عقيل عن نهر بيروت عشرة كيلومترات على الطريق العامة ، وثلاثة كيلومترات تقريباً خطاً مستقيماً عن شاطىء البحر القريب من انطلياس . اما المأوى الصخري فهو قسم من الصخور الطباشيرية العالية التابعة للمنطقة الجيولوجية المعروفة بالجوراسيك . وترتفع اعلى نقطة من مكان الحفريات ٢٥ مترًا فوق سطح البحر (راجع الرسم ١)

ذلك العصر عصر البشرية الاول المترامي في بعده ، المتناهي في طول مداه ، لا يتناوله الطالب في عهد دراسته الا لماماً ، وبالمساع خاطف ؛ كذلك الرجال المثقفون فانهم لا يفقهون تماماً ما هي الوسائل المنطقية المستعملة لتمكين العلماء من البلوغ الى نتائج ثابتة تتعلق بحياة الانسان الاول واذا ما قرأوا في المجلات والصحف بعض معلومات حول كيان الانسان في العصر الظرّاني استحال عليهم الحكم في ما لهذه المعلومات من قيمة صحيحة ، وغرب عن اذهانهم الاساس الذي يرتكز عليه ما فيها من اخبار . وزبدة القول ان الثقة في مثل هذه المعلومات الصحفية كثيراً ما تكون في غير محلها ، لان قوامها في الاغلب قليل من الحقائق الثابتة ، وكثير من الاعتبارات الوهمية .

في هذا المقال ، ولئن كنت شاعراً بعجزي عن تبيان المعلومات الكاملة الممكن القاؤها في سلسلة من الدراسات ، فقد قصدت الجواب عن بعض الاسئلة العامة المتعلقة بالطريقة المتبعة في درس العصر الحجري للانسان .

اني لعالم تماماً ان هذه الاسئلة هي في ذهن كثيرين من المثقفين ، لانهم كثيراً ما طرحوها عليّ . وحسبي في الجواب ان اظهر الاسلوب الذي يستعمله الدارسون لولوج باب هذه الدراسة . وعلى ذلك سأتخذ حفرياتنا في كارعقيل ، في وادي انطلياس ، مثالاً اول لذلك الاسلوب ، متقدماً بكثير من التفاصيل المعلومات الوافية عن الحفريات التي قمنا بها في هذا المكان ، وعن النتائج التي توصلنا الى التثبت منها . فهذا على ظني يناسب القراء اللبنانيين لما يكسبهم اياه من الاحاطة الوافية العميقة بعمل يقع في داخل حدود بلادهم ، وعائد على ما نطمح الى كشف النقاب عن تاريخها القديم ، وكيف كانت الحياة البشرية فيها لعدة آلاف خلت من السنين . وهو في الوقت نفسه يؤدي الى رفعة قدر الوطن اللبناني وزيادة مجده .

السؤال الاول

اول سؤال يطرأ على فكر كل انسان يتصل باحد اولئك العلماء هو التالي : « كيف استدللتم على وجوب الحفر في هذا المكان ؟ »

هذا سؤال جوهري يدل على ذكاء اذ يبدو جليًا اننا لم نأت للحفر في هذا المكان الا وقد توافرت لدينا الادلة على ان حفرياته ستكون ذات ثمرة ، كما هو البديهي ان المرء لا يقوم على الحفر في مكان دون ما ادلة حسية تحمله على ذلك . ولمباشرة الحفريات في محلة كسارعقيل قصة طريفة خاصة نرويها فتكون بمثابة جواب عن السؤال المتقدم :

من نحو بضع سنين كان احد الناس يطوف الاراضي اللبنانية باحثًا عن الكنوز المخفية التي طالما رددت الالسن الاساطير عن وجودها بكثرة في مغاور الجبل اللبناني . وفي طوافه وصل الى وادي انطلياس فذكروا له ان هناك مغارة[1] يتناقل عنها الرواة ان جيشًا دخلها بكامل معداته فسدّت عليه ، وان مذخرات ذلك الجيش ما زالت مدفونة معه بانتظار من يأتي من النقابين فيظهرها للنور . ولهذه الاسطورة على ما اظن اساس تاريخي يلمع الى قتل فئة من المسيحيين في مغارة انطلياس[2] . فهذا المنقب عن الكنوز بحث عن المغارة واهتدى اليها ، ولكنه وجدها خاوية خالية من اي كنز . على انه لاحظ ان فوق مدخلها نوعًا من الحجارة المتراصة على شكل مماثل لما وجده منها في مكان آخر من الوادي[3] ، فقاده ذلك الى الظن ان في هذا المكان الآخر مغارة ثانية

---

١) اكتشفت في هذه المغارة ادوات ظرّانية عديدة جديرة بالذكر (راجع بخصوصها كتاب الاب غودفروى زيمون اليسوعي المنون : G. Zumoffem, *Note sur la découverte de l'homme Quaternaire de la Grotte d'Antélias au Liban*, Beyrouth, 1893 ; - *La Phénicie avant Les Phéniciens*, Beyrouth, 1900

٢) جاء في تاريخ الدويهي ، المطبوع في بيروت سنة ١٨٩٠ ، صفحة ١٥٣ بشان هذه المغارة ما يلي : « ان عشرة امراء من امراء لبنان هربوا سنة ١٣٠٧ (عند نكبة كسروان المشهورة) بحريمهم واولادهم من نائب دمشق اقوش الافرم واختبوا في غار غربي كسروان يعرف بمغارة نيبه فوق انطلياس بالقرب من مغارة البلانه فدافعوا عن نفوسهم ولم يقدر الجيش ان ينال منهم ثم بذلوا لهم الامان فلم يخرجوا فامر نائب دمشق بان يبنوا على الغار سدًا من الحجر والكلس وهالوا عليه تلًا من التراب وجعلوا الامير قطلو بك حارسًا عليهم مدة اربعين يومًا حتى هلكوا جميعًا داخل الغار . »

٣) هذا الشكل المتراصّ من الحجارة اثرت فيه عوامل الفناء تحت سطح الارض فاكلت من الحجر الطباشيري ما هو اقل متانةً . اما ترتيب الحجارة المنوه بها على الشكل الذي وجدت عليه فعائد الى تاريخ اكثر حداثةً .

الرسم ١ – منظر عام لمنطقة كسار عقيل مأخوذ من الشرق ويبدو في وسط الصورة المنزل الخشبي الذي بنته البعثة لسكنها ، وعلى يمينه الصخرة العالية التي كانت تكوّن المأوى الصخري والتي أجريت تحتها الحفريات .

من نوع المغـارة الاولى . وقد حمله الظن على الشروع في الحفر في النقطة المذكورة ، وهي المدعوة بكسار عقيل فتوصل بحفره الى كشف جدار يدعى في اصطلاح الاثريين : « المأوى المظلل بالصخر » (Abri sous roche) ، وواصل الحفر متعمقاً الى ان مرّ به الاستاذ داي[1] ، مدرس علم طبقات الارض (الجيولوجيا) في الجامعة الاميركية ببيروت ، فشاهد الادوات الحجرية والعظام المتحجرة التي كانت تنقل مع التراب والحجارة من الحفائر ، وبالرغم من انه لم يكن اختصاصياً في علم تاريخ الانسان الاول فقد تنبه الى خطورة هذه المكشوفات ، وحاول ان يقنع الباحث عن الكنوز بان لا امل بالعثور على كنز ذهبي تحت مثل هذه المظاهر العريقة الراجعة الى عهد لم يكن للانسان فيه ان يعرف بعد شيئاً مما يختص بالمعادن . ولكن بحاثتنا هذا قرر مواصلة الحفر لان ملاحظة الاستاذ لم تقنعه وتثبط عزيمته ، بل زادته املاً بالعثور على ما يهوى . واستطرد الانكباب على العمل الى ان بلغ في حفره الى عمق ١٥ متراً . امـا الاستاذ داي فحمل معه بعض مساطر من هذه الادوات الحجرية ، والعظام الحيوانية ، وبعث بها الى اوربة لتفحص هناك بواسطة الخبراء الاختصاصيين وعلى هذا النحو دخلت محلة كسار عقيل في عالم العلم .

اما المدقب عن الكنوز فلم يطل به الامر حتى اوقف العمل ، فاستعاد كسار عقيل هدوءه كما كان بالامس فما قبل منذ آلاف من السنين . وظل هذا الهدوء لا يقلقه مقلق الا من مدة غير بعيدة ، فلقد جاء في سنة ١٩٢٦ ، بعض العلماء الفرنسيين فقاموا ببعض حفريات سطحية[2] . وفي سنة ١٩٣٧ قدم الاب جوزف دوهرتي (Doherty) اليسوعي ، من جامعة بوسطن (بوسطن كولدج) في ولاية ماساشوزت في الولايات المتحدة الاميركية ، باحثاً عما كان مجدياً من الحفريات . فقيل له انه قد يجد في كسار عقيل ما يحقق رغبته . تلك كانت نصيحة العلامة

(١ F. Day, *The rock Shelter of Kśar 'Akil*. American University of Beirut, Special Report, 1924.

(٢ Delcourt, *Observations sur l'Abri de Ksar 'Akil (près Antélias, Liban)*, *Bulletin de la Société de Préhistoire Française*. Volume 24, 1927, pages 56-61 ; E. Passemard, *Mission en Syrie et au Liban*, ib., pages 70-72.

الرسم ٣ – منظر للحفريات في عام ١٩٣٨، حينما اكتشف الهيكل البشري الذي سميناه « إكبرت» وتراه في محله على جانب الجدار الصخري في اسفل الرسم من جهة اليمين – واما الثقب الاسود الذي يبدو في اعلى الرسم فهو راجع الى حفر البحاثة عن الكنوز . وعلى الشمال في اعلى الصورة ايضاً صخرة بيضاء اللون وهي تدل على المنطقة الجيولوجية على عمق ١٠ امتار، ووجودها يُثبت لنا ان الهيكل المكتشف بقي محفوظاً في محله الذي دفن فيه

الفرنسي المشهور الاب هنري بروبل في باريس ، المعروف في عالم المباحث العائدة الى ادوات العمل التي كانت للانسان في عصور ما قبل التاريخ . وكان الاب بروبل هذا يعلم كل العلم ما للبنان مع شأن خطير في هذا الامر وان في كسار عقيل ادوات ظرانية . فحضر الاب دوهرتي ، ومعه الاب جورج ماهان (Mahan) اليسوعي ، والاب جوزف مورفي (Murphy) الملحقان كلاهما بالمعهد البابوي للتوراة في القدس ، وشرعوا جميعاً في الحفر . ولحق بهم في الدورة الثانية من الحفريات كاتب هذه السطور الاب يونغ (Ewing). وفي هذه السنة الجارية ١٩٤٧ خفّ العمل ولم يبقَ من العلماء الا الاب دوهرتي والاب يونغ والاب مورفي اليسوعيون ، والاستاذ هربرت رَيت (Wright) من جامعة مينوسوتا (Minnesota) في مينيابوليس التابعة الولايات المتحدة الاميركية .

ان الطريق المؤدي الى الكشوف المثمرة ليس دائماً بالطريق الواسع السهل ، على ان هناك دلائل عامة تمكن من تخمين احتمالات توصل الى الاماكن المحتوية على العاديات ، والطرائق العامة للبحث تهدي الى مثل هذه النتائج منها اعتبارات راجعة الى الحسّ العام كوجود الماء اللازم لحياة الناس الاولين ، ثم ان المغاور والمآوي المظللة بالصخور تستحقّ دائماً ان تكون موضوعاً للبحث . اما فيما يخص الرجل الاول الذي عاش في وسط العهد البلايستوساني (Pléistocène)[1] فالمغاور لا خطورة كبيرة لها لان اكثر محتوياتها ظهر مثلها في الاماكن المفتوحة ، او الاماكن التي كانت مفتوحة في ذلك العهد قبل ان تطمرها الاتربة والحجارة . ولمثل هذه الكشوف حفر وآبار مثل التي عرفت على ضفاف نهر التيمس قرب لندن[2] او يبحث عنها على ضفاف الانهر التي تنحدر تدريجياً

١) عهد البلايستوساني هو المعتبر اقدم عهد بشري ، ويدعى ايضاً العهد الثلجي ، وهو آخر الاطوار الجيولوجية قبل عهد الهولوساني المعاصر للانسان . وينقسم العهد البلايستوساني هذا في اوربة الى اربعة اطوار مناسبة لاطوار الثلج وفي غير اوربة ، حيث لم تستعمل طريقة الحساب التاريخي الاوربية كما في بلاد الصين ، يقسم هذا العهد اصطلاحاً الى حديث ومتوسط وقديم .

٢) وقد وجد هناك قطعة من الجمجمة المشهورة المسماة باسم مكتشفها «سوانس كوم مان» Swanscombe Man راجع Report on the Swanscombe Skull, *Journal of the Royal Anthropological Institute*, London, Volume 68 , 1938, p. 18-98.

الرسم ٣ – صورة مكبرة للقسم الأيمن من أسفل الرسم السابق، وهو يظهر الهيكل البشري في محله كما عثر عليه تحت الجدار الصخري .

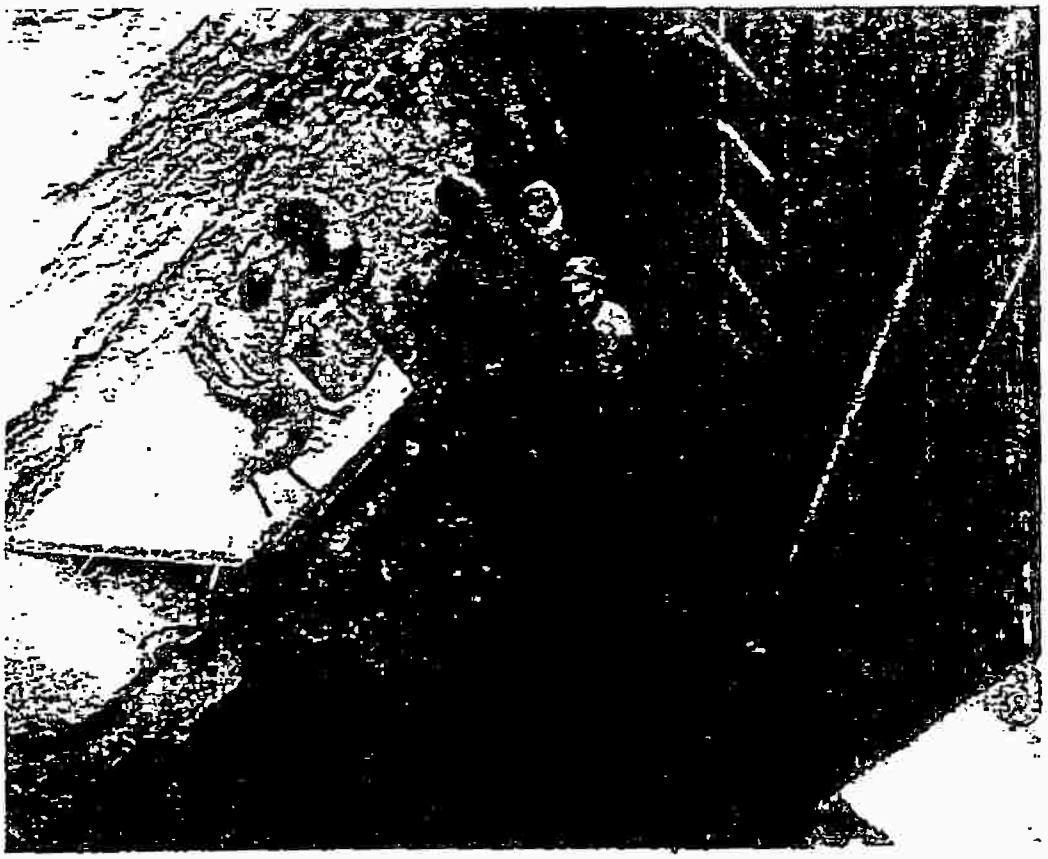

الرسم ٤ – لوحة «الشينتو» التي صُبّت على الهيكل البشري لحفظه في أثناء الحرب، وترى العمال يعملون تحت إدارة الأب «د. رفو» لقطع القطعة بكاملها من الصخرة المجاورة .

وتسحل الاتربة من الشاطئين[1] كذلك المناطق الصحراوية فان رياحها تثير الرمال والحصى فتكشف المخابئ .

لكن من البديهي ان البحث يجب قصره على المناطق التي كانت موافقة لاعاشة الرجل في العصور القديمة[2] . وهناك مصادر بحث غريبة تفيد احياناً كثيرة العلماء البحاثين على مثال ما وقع للعلامة الاستاذ فون كونيكسفالد (Von Kœnigswald) الالماني الذي وجد في بعض الصيدليات الصينية عظاماً واسناناً جيولوجية عريقة في القدم جيء بها الى الصيدلية لتسحق ويستعمل مسحوقها في تركيب بعض العقاقير الطبية . ولدى فحص هذه العظام والاسنان توصل الاستاذ كونيكسفالد الى كشف الاسنان المشهورة الان بنسبتها الى الرجل الاول المعروف في عالم العلم باسم Gigantipithecus[3] . فالكشوف التي يعثر عليها في مثل هذه الطرق تكون ذات خطورة مختلفة ، ونرانا هنا في حاجة الى شرح الواقع الاساسي الذي حملنا على اعتماد الحفر في محلة كسار عقيل . هذا الواقع نسميه دافع القرينة ، فنعرضه وبتمحيص الطريقة الاثرية التي استعملناها في كسار عقيل ، تتبين الاصول العلمية التي حفزتنا وامس النقد الفني التي قادت خطواتنا الى هذا الاكتشاف .

---

١) الاكتشافات القيمة للهياكل البشرية التي عثر عليها على ضفاف الانهر تشمل الهيكل البشري المعروف باسم بيتكانتروبوس (Pithecanthropus) للعالم ديبوا (Dubois) ؛ وفي عهد احدث قطعة المكانتروبوس (Meganthropus) الموصوفة في كتاب : F. Weidenreich's *Giant Early Man from Java and South China Anthropological Papers of the American Museum of Natural History*, New York, Volume 40, Part 1, 1945.

٢) العاديات الجميلة العائدة الى العصر الظراني الحديث النيولوتيك (Néolithique) كشفت في الفيوم بمصر في منطقة هي الان صحراوية G.Caton-Thompson and E. W. Gardner, *The Desert Fayum*, London, 1934 ; S. A. Huzayin, *The place of Egypt in Prehistory*, Cairo, 1941

٣) راجع وصفه في كتاب : F. Weidenreich, *Giant Early Man From Java and South China, Anthropological Papers of the American Museum of Natural History*, New-York, Volume 40, Part I, 1945.

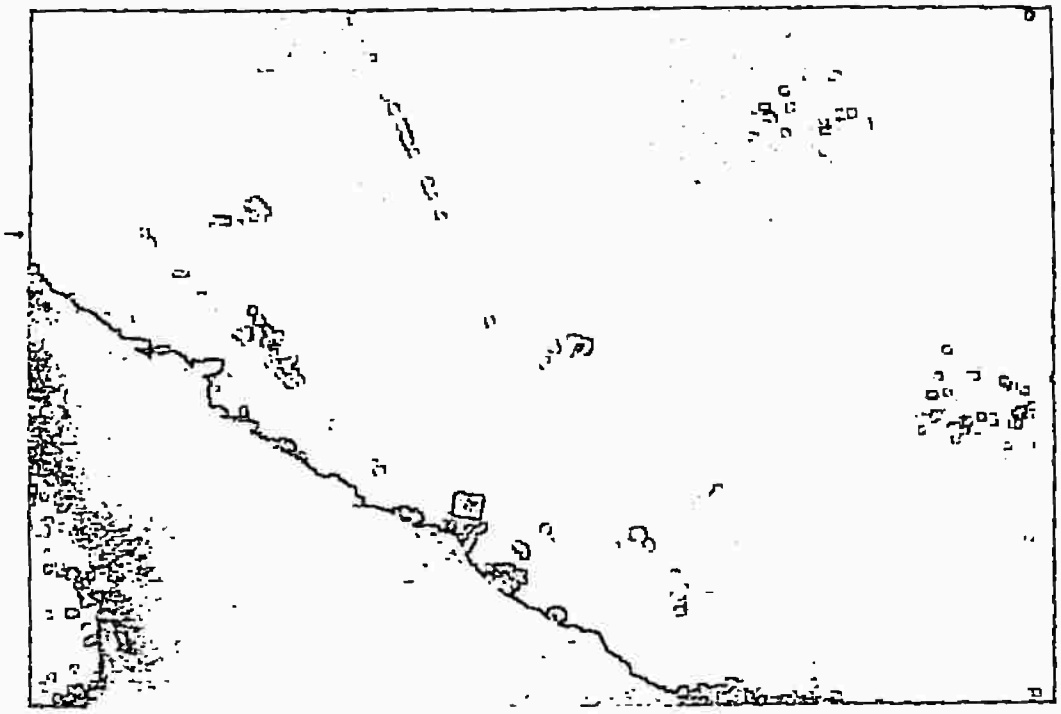

الرسم ٥ – حالة الحفريات في نمرز ١٩٤٧ ، وقد بلغت الى الصخرة الاساسية على عمق ٢٣ مترًا .

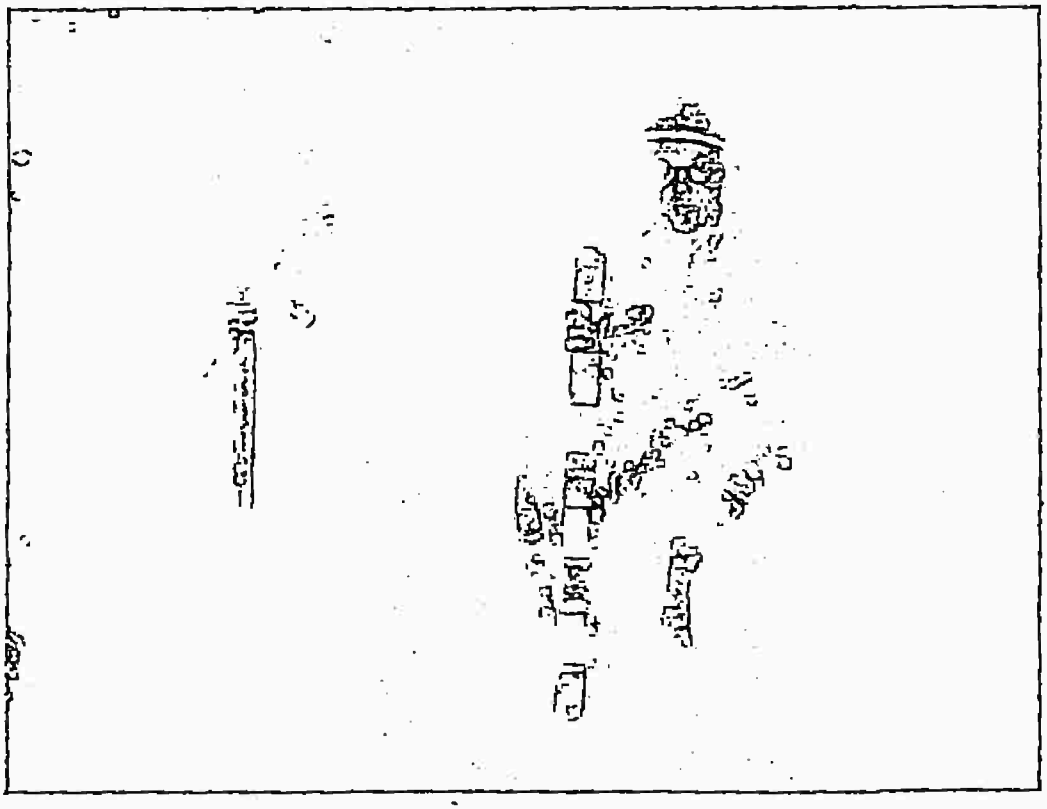

الرسم ٦ – صورة الاب يونغ من جامعة برستون ، والى جانبه رئيس عمال اللبناني .

معنى القرينة المحلية

من زمن طويل جدًا اوى الرجل الاول الى هـذا المأوى المظلل بالصخر المعروف الآن بكسار عقيل . وهناك تحت هذه المظلة الصخرية سكن واشعل ناره لشيّ لحوم الحيوانات التي كان يقتنصها ويأتي بها الى مأواه هذا . وبعد اكل هذه اللحوم كان يكسر العظام المستطيلة ويستخرج ما فيها من نخاعات جامدة وسائلة ، وكان يأتي ايضاً بحجر من الصوّان قطعه من احد الصخور القريبة واقبل على نحته ببراعة ليجعل منه اسلحة وادوات ظرانية كالرؤوس للحراب والسهام ، وكالمقاشط لنحت قوائم الحراب الخشبية وصقلها ، كذلك لكشط اللحوم اللاحقة بالجلود ، والسكاكين لقطع مختلف الحاجات المعاشية ، والازاميل لكسر العظام ولنقش الرسوم في القطع العظمية والحجرية .

ان الرجل الاول كان يصنع هذه الادوات وغيرهـا من الصوان بفضل خصائص هذا الحجر المعروفة ، فانه بسبب صلابته يحفظ حدّه طويلًا دون ما انثلام ، وهو في الوقت نفسه قابل للتكييف طبقاً للمطلوب .

فهذه الادوات ، مع الشظايا المتناثرة من الحجر الصواني عند صنعها ، كانت تقع في الارض فتأتي الوحول والاقذار المنقولة بالارجـل ، والغبار الذي يثيره الهواء ، فتغطيها . كذلك كانت قطـع من الصخور المظللة للمأوى تتساقط وتنضم الى تلك الشظايا فتؤلف كلها طبقة على شكل بساط ممتد على الحضيض الحجري .[1] وبعد مرور زمن كانت الطريقة التي تصنع بموجبها الادوات الظرانية اخذت تتطور ومع تقلب الهواء الذي كان يهب شديدًا في بعض الاحيـان كانت الحجارة تتساقط من سقف المأوى تارةً كثيرة وطوراً قليلة ؛ كذلك كانت اجناس الحيوانات القاطنة هناك تتبدل على توالي الاجيال . فكل تلك التطوّرات تظهر آثارها في هذه الانقاض المفروشة طبقة فوق طبقة في تلك المحلة

---

١) راجع ما كتب عن خاصة الصوان والطرق المستعملة لصنع الادوات منه في الجزء الاول من كتاب M. C. Burkitt's. *The old stone Age* Cambridge, 1933

مشابهة في شكلها وكاملاً من السجاجيد كما تبدو في مخزن من مخازن تجار اليوم، منها الصفيق والرفيع الناعم والخشن، وقد وضعت بعضها فوق بعض. ومن البديهي ان السجادة السفلى فرشت اولا والعليا هي المفروشة اخيراً. ذلك ما يريده العلماء تماماً حين يذكرون ناموس تراصف العاديات. هو اعتبار بسيط، ولكنه اساس وصفي لكل طريقة تتبع في الاعمال الحفرية. فمن الواضح اذن اننا متى قمنا بالحفر بطريقة علمية في مكان، وغايتنا التوصل الى رسم صورة جديدة لتاريخ الرجل الاول، يترتب علينا الا نحفر دون ما تمييز فنخلط بين العاديات التي نعثر عليها على اختلاف طبقاتها. فغايتنا من هذا البحث ان نتأكد بالتدقيق اي شكل من الادوات الظرانية المكشوفة سبق الشكل الآخر. وايّ نوع من الحيوانات ظهر في زمن معين، واي نوع تبعه. فلذلك كل اهمية هذه العاديات من حجارة او عظام سواء كانت تابعة لحيوان او لآدمي هي محصورة في عين العالم الاثري بمعرفة الطبقة الارضية التي وُجدت فيها، والمكان الذي استُخرجت منه، وما اذا كان لها شأن ملحوظ من جهتي الفن والطرافة، « القرينة المحلية » او « القرينة المصدر »

الحفر العملي

قبل مباشرة الحفر يدرس العالم بقعة الارض التي يريد العمل فيها بكل ما أوتي من خبرة وعلم سابق، ثم متى اتمّ تحديد النقطة التي ينوي العمل فيها باشر قسمتها الى مربعات مرقومة باعداد، لكل مربع عدده، حتى يمكنه العود اليه في قابل الحين، فينسب كل اثر الى مصدره « الدقيق ». فتي كسار عقيل قسمنا البقعة الى مربعات عرض كل منها متران، باعتبار ان هذا الحجم موافق لغرضنا. وقد تكون هذه المربعات اكبر مما فعلنا كما جرى الاخر في جبيل حيث كانت البقعة اوفر اتساعاً، فكانت المربعات يؤلف كل منها من عشرة امتار ولدى العثور على شيء ذي خطورة عظمى كان موقعه يحدّد بارفر دقة. ومن البديهي ان تجاور المواد الاثرية يجب ان يدوّن لان ذلك كثيراً ما يساعد على كشف بعض الغوامض، مثال ذلك العقد الذي وجد مؤخراً في كسار عقيل فان سلكه

كان قد فني ، ولكن الحبات بقيت منظومة بعضها الى جانب بعض ، فلو لم يشر عند اخذها الى الترتيب الذي وجدت عليه ، ويؤخذ رسمها شمسياً لاستحال اعادتها الى الشكل الذي ظهرت عليه في موقعها.

كذلك اذا وجدنا حجراً مستديراً ملوناً بلون المغرة الحمراء ، فمن المحتمل ان يكون قد استعمل لسحق هذه المادة فبقي لونها عليه . واذا كان هذا الحجر المستدير موضوعاً فوق حجر آخر او الى جانب حجر مربع اجوف فيكون ذلك الاحتمال حقيقةً لا شك فيهـا . فمثل هذه الاوصاف الدقيقة المتواصلة يستنتج منها العالم البحاثة كثيراً من المعلومات . والصبر هو الصفة الاولى الواجب عليه الاتصاف بها في هذا العلم كما في غيره من العلوم ، وهي كثيرة .

بعد البحث عن القرائن السطحية ينتقل العالم الى القرائن العمودية . ويتحتم عليه ان يقدّر في الحفر الى اي عمق تعود مختلف طبقات العاديات . ولربما وصل الى مرغوبه باكثر سهولة فيما اذا باشر الحفريات من جانب بدلاً من ان ينزل فيها عمودياً ، ولذلك فانه يباشر الحفر الى جانب البقعة كيما يسهل عليه فحص طبقاتها ، ويتمكن من النظر اليها كما ينظر من جانب الى ركام السجاجيد المرصوفة . ولم يكن من حاجة في كسارعقيل الى مثل هذه الطريقة بسبب وجود البئر الفرعية التي حفرها الباحث عن الكنوز في هذا الموضع . والذي ظهر ان هذه الطبقات المتراصة لم تكن في ترتيب منظم كركام السجاجيد ، لان في ارضها صعودًا وهبوطاً مناسبين لتموجات الارض عنـد سطحها او لاختلاف اذواق الرجل الاول في اختيار منزله.

زد على ذلك ان في كسارعقيل طبقات ارضية كثيراً ما كانت مطمورة بالرماد الناتج عن نيران كانت تشعل في تلك المحلة ، وتترك الى ان تنطفئ وتبيدًا من ذات نفسها . كل ذلك لا يفوت الحفّارين لانهم يكونون عادة من ذوي المران ، ويتمون اعمالهم تحت اشراف عالم اثري فتراهم يميزون من عند انفسهم بين طبقات العاديات الارضية المختلفة ، كما في اعلاه ، ويتبعون بكل امانة وتدقيق تصاميم المربعات .

والجدير هنا بالذكر اننا توفقنا كثيراً في اختيار العمال الذين يقومون بالحفر

في كسارعقيل فانهم من اللبنانيين المهرة الاذكياء . وكثيراً ما اثنيت عليهم في احاديثي وكتاباتي مبدياً الارتياح الى دقتهم ونشاطهم وبراعتهم .

فالحفارون يضعون الادوات الظرانية والعظام التي ينقلونها في اكياس من الورق . وترقم على كل كيس علامة المربع والطبقة الترابية وتاريخ اليوم ، وغير ذلك من المعلومات الاخرى المفيدة بهذا الصدد .

وكل ما يحفر من الارض يجمع ويعبأ في قفف ويرفع الى سطح الارض حيث يجري فحصه غربلةً . والغربلة تكون بفرز التراب والاقذار وتنقية القطع الصوانية والعظمية مها دق حجمها ، ووضعها في اكياس مرقومة تماثل بارقامها اكياس الحفارين . ويكتسب المغربلون بالمزاولة مهارة جلّى في ملاحظة ما يعثرون عليه بين التراب من قطع الاسنان والصوان المتناهية في دقتها .

وفي اغلب الاحيان يرى ضرورياً تنظيف هذه القطع من الاتربة اللاصقة بها قبل ان تعرض للدرس . ويكفي لذلك عادة حامض الهيدروكلوريك (acide chlorhydrique) ممزوجاً بالماء ، والا فيلجأ الى الكشط ، واحياناً يكون الكشط ضرورياً ويجري بمكشط غليظ على مثال السكين .

ويجري الفرز الاولي في القطع الظرانية والعظام . اما الكسر الصغيرة والقطع المكتنفة بالابهام فتحصى بالعدد وتطرح خارجاً . ويمكننا عدد مجموع القطع المحفوظة والمطروحة في كل مربع من تخمين كثافة السكان الأقدمين في كسارعقيل ، في كل زمن من الازمنة الغابرة . وهذه على ما اعلم الحفريات الاولى التي تستعمل فيها مثل هذه الطريقة .

اما الدرس الاخير للقطع المفروزة فينبغي ان يجري في متحف كبير او في احدى الجامعات حيث المجموعات الواسعة من العظام والموادّ الظرانية المجموعة من مناطق اخرى مختلفة ، فيقابل ضرورة فيما بينها وتستخرج من هذه المقابلة النتائج العلمية ، اذ لا يمكن ان يجمع في كتاب كل التفاصيل لكل من النواحي والاجناس والادوات والبقايا الحيوانية التي يُعثر عليها .

اما كسارعقيل فعلاوة على ما فيه من ملايين القطع تراه مسرحاً لمشاكل اخرى خاصة ، احداها الهيكلان البشريان المكتشفان على عمق ١١ و١٢ متراً .

فاننا عند بلوغنا الى هذا العمق في مربع قريب من جدار المأوى المظلل بالصخر شاهدنا عددًا من الحجارة المستغربة الوضع. فهي حجارة منمة بتأثير مرور المياه عليها ، مما يدلّ على انها مأخوذة بايدٍ بشرية من مجرى النهر القريب ، فاخذنا لها صورًا شمسية ودونّا بشأنها ملحوظة خاصة أشرنا فيها الى جمها مباشرة من جدار المأوى. ولقد كانت هذه الحجارة ملتحمة بعضها ببعض كما لو كانت طينت بالسمنتو . وقد تم ذلك الالتحام بما تسرب اليها على طوال الاجيال من المياه المعدنية الحاملة بالخصوص مركبات الكلسيوم (كربونات الكلسيوم) التي اكتسبتها بمرورها على صخور المأوى الكلسية . فشرعنا برفع هذا الركام من الحجارة واحدًا بعد آخر حتى انتهينا الى هيكلين بشريين احدهما اوضح شكلاً[1]. وقد سلم راسه لانه على ما يظهر كان محفوظاً تحت بلاطة يسندها من الجانبين حجران. ولكن هذه البلاطة سقطت لسببٍ لا نعرفه فشوهت جانباً من جمجمته تشويهاً بسيطاً لحسن الحظ.

ولما رفعت كل هذه الحجارة من المدفن تبين لنا ان القسم الاكبر من هذين الهيكلين قد تحجر . والتصق كلاهما بالارض التي دفنا فيها بعامل المياه الكلسية المشروح عنها آنفاً.

وهذا المزيج المتحجر من التراب والحجارة والعظام الذى يظهر عادة في الحفريات يسمى باصطلاح الاثريين برَتشيا (Breccia) . وهذا حيثما وجد في هذا المحل او في اسفل المأوى او غيره من المواقع يكون مشكلة خاصة لارباب الحفريات.

ولمّا كان هذا الهيكل العظمي لاصقاً بما حوله من الصخور فلم يكن من المتيسر رفعه بسهولة من موضعه . وعلى ذلك كان لا بد من ان يقطع الصخر حول المدفن كله ليسهل رفع هذا المدفن قطعة واحدة. ويرجأ عمل فصل الهيكل الدقيق ريثما ينقل الحجر برمته الى المتحف. أما في غير ذلك من المدافن فلا

---

١) اطلقنا على هذا الهيكل البشري الاكثر وضوحاً اسم « اكبرت » (Egbert) ، فاصبح معروفاً به بين العلماء . وقد فضلناه بسبب ايجازه على غيره من الاسماء اللاتينية التي اعتاد العلماء اطلاقها على ما يكتشفون من الهياكل البشرية وكل منها ستناه في الطول والتعقد .

صعوبة في رفع العظام من الارض التي وُجدت فيها.

وعلى ذلك فـلا بد من تحقيق عدة شروط لحفظ الهيكل من كل ما يضره . من ذلك صيانته ، حال كشفه ، من تأثير الهواء ، ونتائج تقلّب الطقس بين الشوفة والرطوبة ، فان تعريضه للهواء يعمل على افساده ويسبب له التحلل والتفتت.

اما البقايا البشرية العائدة الى العصور القديمة الاولية مثل العصر البلايستوسانى الاوسط فقلما يعثر على هيكل كامل منها ، فنكتفي عادة بعظم واحد او بكسرة منه لدراسة مثل هذه البقايا . وهذه الدراسة تستوجب علماً واسعاً وخبرة طويلة في علم التشريح.

بقي علينا ان نثبت بالتدقيق ما هي العصور العائدة اليها كشوفنا في كسار عقيل ، على ان بحثنا هذا ليس نهائياً بل من الممكن تعديله فيما بعد[1] ، لاننا لا ننجز الحفريات تماماً ولا نقوم على الخصوص بدرس النموذجات التي استخرجناها دراسة مستوعبة لان مثل هذه الدراسة تتطلب سنين عديدة.

كسار عقيل في ما قبل التاريخ

لا يخفى ان العلم المختص بالادوات الظرانية وغيرها مما صنعه الانسان قبل فجر التاريخ المخطوط ، يسمى « علم ما قبل التاريخ » وهذا العلم يقسم الزمن الى عصور عديدة طويلة المدى اخصها العصر الذي عاش فيه الانسان على الارض قبل استنباط الكتابة . فالعصر الاول والاطول من هذه العصور ، هو المعروف بالعصر الظراني القديم او الباليولتيك ، ويليه العصر الظراني المتوسط او المزولتيك ثم العصر الظراني الحديث او النيولتيك.

وبعد هذه العصور الحجرية تأتي عصور اكتشاف المعادن ولكن ليس من شأننا هنا الاهتمام بهذه العصور الاحدث عهداً.

---

١) قد اشار كاتب هذه السطور الى كل ذلك في مقال آخر نشره في مجلة انكليزية عنوانه: *Preliminary, Note on the Excavations at the Palaeolithic Site of Ksar 'Akil, (Republic of Lebanon), Antiquity*, London. December 1946.

ولكنه زاد هنا النتائج الجديدة التي اسفرت عنها الحفريات الجديدة في السنة ١٩٤٧

اما العصر الظراني القديم او الپاليولتيك[1] فيقسم بدوره الى ثلاثة اطوار: حديث ومتوسط وقديم. واذا عدنا الى الادوات الظرانية الظاهرة في كسار عقيل وجدنا انها عائدة الى كلا القسمين: القسم الابعد من الطور المتوسط، والاحداث من الطور القديم الپاليولتيكي.

وقد غلب على مثل هذه الادوات في الاصطلاح الاثري اسم المكان او الامكنة الاولى التي وجدت فيها بكثرة مثل: لفالوا، وموستيه، واوريناك، (Levallois, Moustier, Aurignac).

ومن خصائص الصناعة الشربة في هذه الاطوار انها كانت سطحية، اي ان اكثر الادوات المعاشية كانت تصنع من قطع مصفحة من الحجارة الصوانية. وطريقة صنعها انها كانت تقطع من الصخرة العريضة الاصلية وفق المطلوب ثم تنحت مصقولة اما من قبل ذلك فكانت هذه الادوات تنحت على القطعة الاصلية نفسها، فتأتي بشكل في غاية الثقل والضخامة. وقد سميت بالفرنسية (coup de poing)اي ضربة اللكمة او الضربة بجمع الكف، اشارة الى شكلها الضخم المستدير كاللكمة.

الطور الظراني المعروف باسم موستيه Moustier[2]

كان الاقوام الذين اشتغلوا بالظران في هذا الطور يفصلون القطع المصفحة من اصل صخرة صوانية وينحتونها بمهارة من جهتها العليا. والادوات المنحوتة على هذا النحو سهلة التمييز عن غيرها، تخص منها بالذكر الكواشط المرققة بطولها من طرف واحد كحد السكين، ثم المخارز والاسطوانات الصغيرة

---

١) ربما كان احسن توطئة لدرس العصر الحجري القديم او الپاليولتيك كتاب بيركيتر M. C. Burkitt's, *The Old Stone Age*, Cambridge, 1933 وان كان يحتاج الى قليل من التعديل طبقاً للاكتشافات الحديثة. ونخص بالذكر من المؤلفات المشتملة على هذا العلم كتاب:

A. Vayson de Pradenne, *La Préhistoire*, Paris, 1940.

٢) موستيه (Moustier) اسم بلدة من اعمال فرنسة قريبة من (Les Eyzies)

الغليظة الشكل وكان هؤلاء الاقوام من الجنس البشري المنتمي الى الرجل المعروف بالنياندرتالي (Homme Néandertal) [1].

اما الاقوام الذين اتبعوا في اعمالهم الظرانية طريقة Levallois[2] فقد كانوا ينحتون القطعة المراد صنعها في الصخر نفسه ، حتى اذا كملت واصبحت صالحة للعمل فصلوها عنه بضربة فنية واحدة . والجدير بالذكر انهم كانوا يجيدون نحت اعقاب هذه الادوات قبل ان يضربوها الضربة الفاصلة الاخيرة ، لانها بعد فصلها تصبح غير محتاجة لاي صقل او نحت .

وان اقدم ما عثرنا عليه في كسار عقيل من الصناعات البشرية يعود الى خليط من هتين الطريقتين السابق وصفهما ، لذلك سميت هذه الصناعة هنا ، كما سميت في جبل الكرمل[3] بهذا الاسم المركب Levalloiso - Mousterien وادوات هذه المجموعة كبيرة الشكل مكونة بالعموم من قطع مصفحة غليظة . ويلاحظ هنا ان ادوات هذه الصناعة كانت في عهدها الاقدم اصغر حجماً مما آلت اليه بعد حين في طور احدث .

وطالت المدة التي بقيت فيها هذه الصناعة اجيالاً . ومما هو جدير بالذكر العثور على طور انتقال من هذه الطريقة الى طريقة اخرى تعرف بالطور الاوريناكي « Aurignac » .

---

١) وقد وصفه الاستاذ بول في كتابه المعتبر مستنداً حفيفاً بالثقة لدى العلماء : Boule, *l'Homme Fossile* وهو المنشور لاول مرة في سنة ١٩٢٣ ، وقد اعيد طبعه مرة اخرى احدث عهداً .

٢) اسم منطقة في احدى ضواحي باريس وجدت فيها هذه الصناعة لاول مرة فاطلق اسمها عليها .

٣) D. A. E. Garrod and D. M. A. Bate, *The Stone Age of Mount Carmel*, Volume 1, Oxford, 1937.

طريقة اوريناك [1]

اننا نطلق هذا الاسم بالعموم على الطور التابع للطور الذي سبق لنا وصفه في اكتشافاتنا بكسار عقيل، وهو قسمان ويتميز بالخصوص بصناعة الشفار الحجرية لكثرة ما يعثر في الحفريات العائد عهدها اليه على ادوات شبيهة بشفار السكاكين. كذلك يتميز عقده المتوسط على وجه خاص بما تحلّف منه من اصناف الكراشط المتقنة الصناعة، ومن الازاميل المستعملة للنحت. فلهذه الازاميل رؤوس تشبه منكبات البراغي وكان الاهلون في ذاك الوقت يستعملونها، ولا شك، في فلق العظام الحيوانية لاستخراج ما فيها من النخاعات. وكانوا ايضاً يفصلون بها قطعاً دقيقة من العظام الكبيرة ليحولوها الى ادوات منزلية تستعمل في مختلف الاغراض المعاشية كالمخارز والابر وما شاكل. وكانوا ايضاً ينقشون بها على جدران المغاور الرسوم والتصاوير.

ونرى الان ان في استطاعتنا تسمية نوع الصناعات المكتشفة في كسار عقيل باسمها الصحيح الذي يجوز بعدئذ نسبته الى الصناعات المماثلة التي تظهر في حفريات اخرى، ولا يعني ذلك اننا لا نعثر على بعض الاستثناءات الجلية حين نقابل ما بين نموذجات هذه الصناعات. فهذه الفروق ستبدو باكثر جلاء عند انتهاء دراستنا في نشرتنا الاخيرة عنها ويمكننا منذ الان لفت الانظار الى بعض نقاطها المفيدة.

فالادوات الراجعة الى شكل واحد والتي تؤلف طريقة خاصة من الصناعة القديمة، تجمع على الطريقة نفسها التي يجري عليها علماء الحيوان في تقسيم عائلاته واجناسه وانواعه، وذلك بالاستناد الى الإشابهات الظاهرة ما بينها. وبذلك حين نتمكن في عملنا من تمييز شكل من الادوات يصبح من السهل علينا فرز ما يشبهه من الارض ونسبته اليه، بان نعلم ان هذا او ذاك الشكل من الصناعة موجود في بقعة كذا من الارض. ومثل هذه الادوات تستعمل في المتاحف كنموذجات لكل شكل من الاشكال. وعلى هذا تقتصر فائدتنا من كشف مثل هذا الشكل في احد الحقول. كذلك يمكن القول ان كشف شكل معيّن من الادوات الظرّانية في طبقة من طبقات الحفريات لا

١) اوريناك Aurignac اسم بلدة قرب سان غردنس (S'Gaudens) في جبال البرنه بفرنسة.

يعتبر كافياً للاستدلال على الزمن[1] الذي يعود اليه ذلك الشكل. اذ قد يصح ان تبقى احدى طرق الصناعة الادوات في مكان ما دهرًا طويلًا في حين تكون هي نفسها قد تقدمت وتبدلت بغيرها من الطرق في مكان آخر. مثال ذلك في ايامنا احتمال وجود البنادق القديمة ذات الزناد الصواني (ابو فتيل) في وسط افريقية حتى الان، في حين ليس من يجهل ان هذه البنادق قد تبدلت منذ زمن طويل في اوربة والشرق الادنى.

ولكي نمثل من جديد حياة الانسان القديم اشرنا الى خطورة القرائن المصدرية في هذا الامر، ذلك لاننا بدون هذه القرائن لا يمكننا البتة ان نصل الى الترتيب التاريخي. تصوّر مثلًا ماذا يكون العلم من دقة فيما اذا كان المؤرخ لا يعلم عن بعض الوقائع التاريخية في شرقنا هذا الا انها حصلت منذ وقت قديم دون معرفته ايها سبق الآخر واي حدث منها كان ذا تأثير في غيره.

فالترتيب التاريخي الذي نحدّده في كل من حفرياتنا هو ترتيب نسبي مكاني. اعني اننا نعلم او نحدد ترتيب الحوادث وسياقها الواحد بعد الاخر كصناعة الادوات مثلًا في كل حفريـة من الحفريات على حدة. ولا يمكننا الاستدلال من ذلك على مدى الزمن الذي بقي فيه ذلك الشكل من الادوات الصناعية منتشرًا في جميع المناطق بل في المنطقة التي نصل فيها. وهذا يجعل المقابلة بين مختلف المناطق امرًا ضروريًا. مع ذلك اذا تيسّر لنا كشف حادث جيولوجي جرى في زمن واحد ضمن منطقة واحدة معينة وامكننا قياس زمنه الجيولوجي بالسنين نكون قد توصلنا الى تحديد تاريخي شبه راهن لارتكازه على شواهد جيولوجية. فلا يمكن القول بترتيب تاريخي جازم الا اذا امكن ضبطه تماماً بمقاييس السنين.

---

١) وقد قسّم العالم غارود D. A. E. Garrod, *the Upper Paleolithic in the Light of Recent Discovery*, Proceedings of the Prehistoric Society of London, Vol. IV 1938, pages 1-36 العصر الاوريناسي القديم الى ثلاثة اطوار: الحديث منه ودعاه Chatelperronien والمتوسط واحتفظ له باسم الاوريناسي القديم، والقديم فسماه Gravetien وهي اسماء منسوبة الى امكنة أجريت فيها حفريات مشهرة. واما في كسار عقيل فتعود حفرياتنا الى Chatelperronien فقط، ولكننا استعملنا كلمة Aurignacien وهي كافية لغايتنا.

وعلى كلّ فلا يحق لنا الجزم بان هـذه الصناعة او تلك انتقلت من هذه الناحية الى غيرها ، الا اذا تأكدنا تعيين المنطقة التي ظهرت فيها بادئ ذي بدء. وكيف تنقلت بعد ذلك وهذه لعمري نقطة اساسية لان تمثيـل تتابع الصناعات وتطوّرها في منطقة معينة هو ذو خطورة كبرى لمؤرخ العاديات ، بل هو من اختصاصيّات علمه . ولكنه يحتاج الى كثير غير ذلك ، اذ من النادر ان تكون اداة من الادوات ، وطريقة من الطرق ، او فكرة من الافكار ، قد تطورت في مناطق مختلفة مع استقلال احداها عن الاخرى . والذي حصل في اغلب الاحوال هو ان الجديد الذي استنبط في مركز ما كان يمتد وينتقل الى غيره الآهل بالاقوام المجاورة . وهؤلاء الجيران كانوا بدورهم ينقلونـه الى سواهم بعد ان يدخلوا عليه بعض التعديل والتحسين[1]. فمعرفة مثل هذه العلاقات المتبادلة بين مختلف المناطق والشعوب هي غاية الباحثين عن حوادث مـا قبل التاريخ ، كما ان مؤرخ الرجل العصري لا يكتفي بسرد كل حادث من الحوادث باطناب وتدقيق ، بل يسعى وراء كشف المؤثرات الاجتماعية ، ويتناول ببحثه العلاقات المتبادلة بين الدول والجماعات ، مبيناً تسلسلها بعضها من بعض وماذا كانت عللها الاولية ونتائجها الاخيرة.

ولنعد اخيراً الى موضوع الادوات المستخرجة من كسارعقيل فنرى من واجبنا القول اننا اكتشفنا بين الادوات العائدة الى طور الاوريناسيان مخـارز من العظم كانت ، على بساطتها ، بوادر لما تبعها من اشياء كثيرة الخطورة تفوقها اتقاناً وجمالاً بالنسبة الى مثيلاتها من مكتشفات الطور الباليوليتيكي (اي الظرّاني القديم) المكتشفة في اوربة.

في هذا الطور نفسه ، استخرجت الحجـارة المستديرة التي كانت تستعمل لسحق المادة الترابية الحمراء المعروفة بالمغرة ، ولا يُحتمل ان تكون هذه المادة الحمراء قد استعملت لغير التجميل ، وذلك بطلي بشرة الوجه بها كما لا يزال دارجاً حتى الان عند بعض الشعوب الابتدائية . ولسوء الحظّ لم نجد شيئاً من

---

١) راجع الدرس القيّم الذي كتبه الاستاذ كروبر عن مثل هذا الانتشار في كتابه المسمى «انتروبولوجيه» . A. Kroeber, *Anthropology*, New-York, 1932

الآثار الفنية في كسار عقيل . اما في اوربة فتخصّ هذه الاثار بالطور الاخر من العصر الباليولتيكي القديم والتصاوير والرسوم المستخرجة هناك وجدت في اعماق المغاور .

درس العظام الاثرية في كسار عقيل

لا تشكل العظام الاثرية المستخرجة من كسار عقيل القسم الاهم من العاديات التي عُثر عليها في ارضه . ولكن دراستها ذات فائدة جزيلة .

فهناك مظهران خطيران للحياة الحيوانية القديمة في بلادنا يسترعيان النظر . الاول عثورنا على عدد ليس بقليل يناهز الالوف من اصداف الحلزون الصغير ، اي البزّاق[1] ، في عمق يهبط قليلًا عن الطبقة التي وجد فيها الهيكلان البشريان . ثم انقطعت هذه الاصداف بصورة فجائية جازمة . والذي يُرجّح في تفسير ذلك ان شعوب الطور الاوريناسي في انطليـاس كانوا يتغذّون بالبزاق بكثرة بينما كان غيرهم من الشعوب ، ومنهم النياندرتال العائدين الى طور «ليڤالوا موستريان» لا يعرفون هذه العادة اي عادة التغذي بالبزاق .

فوجود هذه الاصداف يؤدي الى نتائج ذات اهمية في ترتيب ازمنة الصناعات في كسار عقيل . وهكذا ينال البزّاق الحقير اهمية خطيرة في العصور السابقة للتاريخ .

المظهر الثاني ، الذى يفوق المظهر الاول خطورة ، هو التغير الكبير الذي نشهده حالًا في الحفريات على عمق ١٦ مترًا ، اذ عثرنا هناك على بقايا عظام الحيوان المعروف بوحيد القرن مع غيره من عظام حيوانات تصعب معرفتها[2] تصور الفرق بين ما كان عليه لبنان سابقًا وكيف اصبح الان خصوصاً في اثناء الصيف ،

١) هذه الاصداف مكوّنة خاصة من جنس الهليكس (Helix) وهو جنس من الحلزون يشابه تمامًا جنس البزاق الذي ناكله نحن اليوم . وهناك عدد كبير من جنس الباتلا (Patella) والتروكوس (Trochus) وكلاهما من الجنس الآتي عن شاطىء البحر .

٢) هذا الحيوان الوحيد القرن الذي استنتجه من بيت Bate في حفريات جبل الكرمل باسم : Rhinoceros cf. hemitocchus يختلف في كل حال عن وحيد القرن البارد المكتشف في اوربا في العهد البليوستوسيني . واما غيره من الحيوانات المكتشفة معه في كسار عقيل فهي الضبع الكبيرة Hyana crocuta والجاموس Bubalus وعدد كبير من الحيوانات الصغيرة مثل Arvicolinae و Cricetinae

الفصل الحار الناشف ، فان هذه الحيوانات الوحيدة القرن لو كانت لا تزال باقية لما استطاعت العيش الان في منطقة انطلياس . واننا نعلم من الابحاث التي اجريت في مناطق اخرى اننا في ابتداء الطور الاخير للعصر الثلجي في اوربة نجد تغييراً عاماً في جنس الحيوانات[١] التي كانت تقطن هناك ، ونشاهد ما يماثل ذلك في جوار جبل الكرمل[٢] . وهذا يساعدنا على وصل طبقات حفرياتنا بطبقات سائر المناطق التي كانت عرضة لمثل هذا التغيير . وسنعود الى متابعة هذا البحث في موضع آخر .

ونتذكر الآن ان البقايا العظمية التي عُثر عليها في كهف عقيل تعود الى الحيوانات التي تؤكل ، اعني الحيوانات التي كان الانسان القديم يصطادها ثم ينقلها الى منزله للاقتيات بلحمها .

وهنا عامل جديد يحدو الى التمييز بان ميل السكان في هذه المنطقة الى الطعام كان يتراوح بين البراق ولحوم الحيوانات مع ذلك يمكننا التاكيد ان الحيوانات التي يُعثر على بقاياها بكثرة في احدى طبقات حفرياتنا كانت تقطن بكثرة في هذه المنطقة في ذاك الزمان . وبعض تلك الحيوانات كالايائل مثلاً تفضل المناخ الرطب حيث الجبال والاودية المغطاة بالغابات . اما غيرها مثل النزلان فتفضل الصحارى والبراري[٣] . فبامكاننا اذن ان نحصي بقايا هذه العظام الحيوانية فنستنتج من تغلب جنس منها على آخر كيف كانت حالة المناخ في

---

١) راجع : F. E. Zeuner, *Dating the Past*, London, 1946, p. 229

٢) راجع : F. E. Zeuner, *op. cit.* ; and D.A.E. Garrod and D.M.A. Bate, *The Stone Age of Mount Carmel*, Vol. I, Oxford, 1937, p. 155 155

٣) ومما عثرنا عليه كثيراً في حفرياتنا بقايا الايائل Dama mesopotamica كذلك الايل الاحمر المعروف باسم Capreolus capreolus والمعزى Capra sp. . فهذان الاخيران مع النزال Gazella sp. يكثر عددها في الطبقات الحفرية الاحدث عهداً . واما الخنزير البري Sus scrofa والبقر فيكثر عددها كلما عمقنا في الحفر وابتعدنا عن التاريخ ، واما غير ذلك من الحيوانات فيعثر عليها بصورة نادرة مثل عظام الدب الاسمر الصغير Ursus arctos ، ومن عائد الى فهد Panthera pardus. كذلك العظام العائدة الى الثعلب Vulpes sp. .

ذلك الوقت . وهذا العمل قد أجري بنجاح باهر في حفريات جبل الكرمل[1] واملنا ان تخصص مثل هذا الدرس بالحيوانات المكتشفة في كهف عقيل ، وان نستنتج منها حقائق علمية ثابتة ، واخص هذه الحيوانات عدد كبير من الايائل والمعزى والغزلان والخنزير البري والبقر ، وعدد قليل من الدب الاسمر والثعلب والجاموس والضبع من الجنس الضخم الخ . . .

والجدير بالذكر اننا لم نجد في كهف عقيل اثرًا للسمك . ويستنتج من ذلك — الّا اذا ظهر ما يفيد الخلاف — ان سكان كهف عقيل الاقدمين لم يكونوا من الصيادين ، ولا من اكلة السمك ، الا اذا كانوا ياكلون السمك على شاطئ البحر دون ان ياتوا به الى منازلهم في النقطة الجاري الحفر فيها . وهذا الامر يبدو لنا غريباً لانهم لم يتأخروا عن نقل الاصداف البحرية اليها ، فكيف اغضوا عن نقل الاسماك .

ومعلومٌ ان العلماء اهتدوا في الازمان المتأخرة الى طريقة جديدة لفحص مثل هذه الشؤون تكاد لا تمدو الحقيقة وقد اسموها « طريقة فحص الطلع » (والطلع هو الغبار الذي تلقح به الازهار بعضها من بعض) .

هذا الطلع الواقع في الارض من النبسات والاشجار منذ آلاف السنين يفحص ويحدّد به جنس الاشجار الذي كان ينشره في ذلك العهد ، وتحدد ايضاً كثافتها بطريقة ذات حساب يكاد لا يختلف عن الحساب المستعمل اليوم في فحص الدم في مخابر مستشفياتنا[2] .

هذه الطريقة افادتنا كثيرًا في مكتشفات شمالي اوربة ، وربما تكون ايضاً ذات فائدة في مكتشفات كهف عقيل . ولكن الاحوال هنا لم تكن تساعد على حفظ الطلع ، كما كانت تساعد في اقطار اوربة الشمالية ، ولا يسعنا الا انتظار نتيجة الفحص الجاري الآن حتى يمكننا الحكم .

(١ D. A. E. Garrod and D. M. A. Bate, *The Stone Age of Mount Carmel*, Vol. I, p. 141 - 2.

(٢ G. Erdman, *An Introduction to Pollen Analysis*, Waltham, Mass., 1943

البقايا البشرية في كهف عفيل

سبق لنا ان تحدثنا عن كشف الهيكلين البشريين في مكان لا اثر فيه لمدفن خاص لهما . فانهما وُجدا في ارض تحولت الى حجر بفعول تسرّب المياه الكلسية اليها . واذ كنا حتى الآن لم نتمكن من فصلهما عن موقعهما الحجري، كان من المتعذر علينا ان نثبت شيئاً عنهما سوى القول انهما وجدا. ومع ذلك ، بما ان جمجمة واحدة منهما وجدت خارجةً في قسم منهما عن المنطقة الحجرية ، فهذه يمكننا أن نبدي بشأنها بعض الملحوظات[1] .

هذه الجمجمة لفتى كان حين وفاته في نحو الثامنة من عمره ، نستنتج ذلك من حالة اسنانه، فان العمر المتوسط للاسنان عند فتيان هذا العصر معروف . ويجوز لنا القول ان هذا العمر لم يتغيّر كثيرًا عن عمر الفتيان في تلك العهود العريقة في القدم . اما التجويف الدماغي فيه فيشابه تماماً في الحجم والشكل وكثافة العظم الاقحاف امثاله في انسان هذا العصر .

والهيكل يعود الى شكل الرجل المعروف عند العلماء الاثريين باسم « الرجل العاقل » (Homo Sapiens) ، اما اسنانه فاكبر مما توجد عادة عند امثاله من الاطفال المعاصرين وفي فكه الاسفل شيء من الغلاظة؛ وخدّاه مهما دققت في البحث يظهران غير موجودين . كذلك لم نعثر على الانحدار الخلفي الذي يلاحظ في قمة الوجنة في جنس الانسان النياندرتالي ، وانما وجنته قائمة بصورة عمودية مع استواء كالصفحة . وهذا لا ريب من اخصّ ملامح الاقدمين ، على انه يوجد بعض الاوقات حتى بين افراد عصرنا الحالي.[2]

وبما ان هذين الهيكلين يعودان الى صدر الطور البشري الاوريناسي

---

١) راجع ما كتبه المؤلف عن ذلك في مقاله : Aurignacian Man in Syria (Abstract), *American Journal of Physical Anthropology*, New Series, Volume 4, 1946, pages 252 - 3.

٢) نجد امثال ذلك الشكل عند اهالي كالدونيا الجديدة New - Caledonia وقد خصص له الاستاذ سارازن درساً في كتابه :

F. Sarasin, *Atlas zur Anthropologie der Neu - Caledonier und Loyalty - Insulaner*, Berlin, 1922.

مباشرة بعد الطور فقالوا موستيه ، الذي يمت بالصلة الى اقوام النياندرتال ، وبما ان هناك مظاهر واضحة لمتابعة الصناعة العائدة الى طور لفالوا — موستيه في الطور الاوريناسي ، فينجم عن ذلك ان لهذه البقايا المكتشفة عندنا خطورة عظمى . ومن المحتمل ان نجد هناك ايضاً اختلاطاً في شكل الانسان في ذلك العهد ، كما وجد هذا الاختلاط في عصر اكثر قدماً في حفريات جبل الكرمل.[1] وعلى كل فلهذين الهيكلين خطورة كبرى لانهما اول الموجود من نوعهما من العصر الاوريناسي في الشرق الادنى .

جيولوجية كارعقيل[2]

لقد ميزنا عدة طبقات حيولوجية في ارض كار عقيل : منها ما يعرف بلونه الاحمر ، ومنها بصلابته الدلفانية ، ومنها برمله ، ومنها بحصاه . ولا نذكر هذه التفاصيل رغبةً منا في معالجة علم الجيولوجية ، ولكن لان الاوضاع الجيولوجية تستطيع ان تساعدنا ، وهي في الواقع تساعدنا على فهم الاحوال الجوية خاصة ، التي تقلب فيها تاريخ الانسان القديم في كار عقيل . ولا سيما لانها تمكننا من وضع اركان الترتيب التاريخي المعروف « بالكرونولوجية » او علم تقويم الازمنة .

واننا مع غض النظر عن الظاهرات الجيولوجية المفيدة بذاتها ، وان تكن غير مهمة ، لا يسعنا الا الاشارة الا ثلاث كتل او مناطق ارضية ، وهي جوهرية فيما يخص معارفنا الحالية للترتيب التاريخي (الكرونولوجية) في كار عقيل .

وزبدة القول ان تلك المناطق هي عبارة عن طبقة او طبقتين من الدلفان

---

١) راجع : A. Keith and T. Mc. Cown, *The Stone Age of Mount Carmel*, Volume II, Oxford, 1939

٢) وجه الاستاذ هربرت رايت (Herbert E. Wright) العالم الجيولوجي التابع لبعثتنا العلمية الجيولوجية الينا بعض ملاحظات قال فيها : ان الركامات المكتشفة في كار عقيل ترجع باجمعها الى العصر الثلجي الاخير . ويتطلب هذا الرأي بحثاً اوسع ومقابلات مع القران للتوصل الى نتيجة ثابتة لتقدير الزمن الجيولوجي في المنطقة المجاورة لكار عقيل .

اللزج ، والحصى الصغيرة الخشنة وتحتها بساط من الدلفان الاحمر الصافي صفاء يكاد يكون تامًا.

وهذه المناطق تمثل «الاطوار المطيرة» . وذلك يحتاج الى بعض الايضاح.

في شمالي اوربة ، في زمن رسوب الطبقات التي ذكرناها ، ظهر راس جبل جليدي جبار ما لبث ان زحف من الشمال يقدم مرةً ويحجم اخرى ، وفي حركاته هذه كانت العواصف الهوجاء تطوقه وتهب منه في ذهابه وايابه.

وفي غضونها على بعد الوف الاميال ، في لبنان ، كانت الانواء تتأثر بهذاهيل الراس الجليدي فتحدث الشرفة طورًا والرطوبة تارةً ، فسميت ايام الرطوبة تلك « الايام المطيرة » (Pluvial periods)[1]

فكل من التشكيلات الجيولوجية التي ذكرناها كانت تتكون في طور من « الاطوار المطيرة » . فاذا صح كلامنا هذا — وكل عالم جيولوجي يزور كسار عقيل يوافق على ان تشكيلاته الجيولوجية تمت في الطور الرطب — امكننا ان نربط بالاطوار المطيرة زحفات الجليد الثلاث التي حدثت في العهد الاقرب زماناً منا ، ومن ثم تيسر لنا ان نطبق على الشرق الادنى نواميس ترتيب الازمنة الذي وضعه الاوربيون وطبقوه على مثل تلك الظاهرات التي وقعت في بلادهم في مثل العصر الذي نحن باحثوه الان في بلادنا .

وها نحن للمرة الاولى يمكننا التحقق باننا نستعمل الاصطلاحات التاريخية الجيولوجية ذاتها ، المستعملة على السواء في كسار عقيل في العهد الظراني الاول ، وفي اوربة في الامكنة المناسبة له قدماً . وان كل موضع في الشرق الادنى مجاور لكسار عقيل ، وله معه تناسب جيولوجي ، يتناسب واياه في رتبة واحدة على جدول الازمنة الجيولوجية التاريخية المعروف بجدول ترتيب الازمنة او الكرونولوجيا. هذا اهم ما يجب ان نسترعي اليه الانظار فيما خص كسار عقيل عند درسنا الانسان الاول .

---

١) نظن ان الحجارة الصغيرة في مناطق الحفريات الكبيرة وقعت من سقف المأوى الصخري تحت تأثير العوامل الطبيعية لا سيما الرطوبة الشديدة، وربما ايضاً تأثير التبلور . واما اللون الاحمر فهو ناتج عن تحول الرواسب الكلسية في المكان نفسه ، فانها بتحولها تركت المركبات الحديدية وغيرها من المواد في محلها ، فظهرت بهذا اللون الاحمر .

ترتيب الازمنة التاريخية لكسار عقيل

آني استطيع تبيان العلاقات بين الجيولوجية وترتيب الازمنة في عاديات كسار عقيل ، وذلك على سبيل المحاولة والتخمين والترجيح ، مستندًا الى مختلف الادلة المأخوذة من المكان نفسه او من غيره من الامكنة . ان ترتيب الزمان بالضبط الكامل مع تاريخ السنين لامر جدّ عسير ، ومهما بذل فيه من عناء فلا يتعدى حدّ الافتراض . قال الاستاذ ف . ا . زوينر[1] ، من احدث العلماء عصرًا : قد يكون بدأ عمران كسار عقيل من نحو ٠٠٠ ١٢٥ سنة ، وان اصبت في ظني كان الزمن الذي استغرقه عمر تلك الطبقات القائمة في كسار عقيل ، لا يقل عن الزمن الذي حدث فيه آخر تجمّد في شمالي اوربة .

ومع ذلك فان تقويم زوينر هذا عرضة للنقاش والجدل مع غيره من العلماء ، ولست ابغي الدخول وإياهم في مناظرة حول هذا الموضوع في مقالي هذا .

وغاية ما اريد بحثه هنا انما هو تاريخ السنين النسبي ، وبوجه خاص الترتيب الزمني الجيولوجي مع مراعاة الوقت الذي برزت فيه الحيوانات الى عالم الحياة ، واعتبار ما يؤديه لنا علم ما وراء التاريخ وعلم الجيولوجية من معلومات وفوائد . فيغلب على ظني ان طبقاتنا هذه تكوّنت ردًا لفعل الزحفات الثلاث التي حدثت في الطور الجليدي الاخير في اوربة .

فالزحفة الاولى او الابتدائية قد تكون حدثت عندما تشكلت طبقة كسار عقيل السفلى ، وموقعها في عمق ١٥ الى ١٦ مترًا تحت سطح الارض .

اما الثانية فقد تاتي معاصرة للطبقة الواقعة على عمق ١٠ امتار .

وتكون الثالثة معاصرة للطبقة الواقعة على عمق متر و٥٠ سنتيمترًا[2] . ولم نأتِ بهذه الاقوال الا من باب الحدس والرجم اذ لا يسعنا التأكيد . كما انا نشكّ في ان مدة ما من الزمن انقضت بين زحف الجليد وحدوث «الطور المطير»

---

١) راجع : F.E. Zeuner, *Dating the Past*, London, 1945, e. g. page 145 and id., *The Pleistocene period*, London, 1944.

٢) حسب تقدير العالم زوينر Zeuner المذكور تعود هذه الطبقات الى ١١٥ الف سنة و٢٢ الف سنة و٢٢ الف سنة .

في لبنان ، وليس من يعرف كم كانت تلك المدة . ولكن ، ونحن في معالجة العهد الحجري القديم ، نفترض مقاييس الزمان فضفاضة على خلاف التاريخ المصري الذي يضبط الزمان محددًا بالسنين والشهور والايام . اما نحن ، معشر الباحثين عن حال الانسان القديم ، فلا بدّ لنا من الاكتفاء بتقويمنا الزمني على علاته ولو اضعنا منه الوف السنين . هذا ولا بد من ان نتحقق من اننا ندرس التطوّرات في نواحي الصناعة والفن المتصلة بالحياة الاجتماعية . وهذه تطلبت زمانًا اكثر طولًا ، وقد تحركت بحركات ابطأ جدًا مما حدث مع امثالها في عالمنا المصري . عهـدئذٍ اي في العهد الظراني الاول لم يكن المذياع ، ولم تكن الطيارات ، مما يؤدّي الى سرعة التواصل في الافكار والى استعجال وقوع الحوادث .

ما نعرفه عن الانسان القديم

لقد بحثنا معيشة الانسان القديم والاساليب العلمية في درس بقاياه ، وامعنا النظر في كيفية الوقائع المختصة به وبتلك البقايا . ومن البديهي اننا كلما تقربنا بالزمان الى الانسان المصري اتسع المجال لاكتشافاتنا وتعليلاتنا عن انسان العصر الحجري الاقدم ، وقلنا اننا نستطيع ان نعين له موضعًا ما ثابتًا في احد اطوار الزمان . ويمكننا بكل سهولة ان نقرر في اي جوّ عاش في مختلف اطوار حياته ، وان نعرف الكثير من اغذيته وقد تزداد معرفتنا مع تكاثر الحفريات بما كان لديه من آلات .

هذا وقد المعنا في بحثنا السابق حول موضوع التراب الحديدي ، الى عادات الشعوب غير المتمدنة ، وهي تساعدنا اليوم ، على ان نعرف اكيدًا كيف كان الاقدمون يستخدمون بعض الاشياء والآلات وربما قدمت لنا الاثنولوجيـة ، وهي علم عادات الانسان ، المادة اللازمة لابراز الحكم في هذه الامور تارةً عن يقين تامّ ، وطورًا على سبيل التكهن والتخمين .

ولقد تزداد حاجتنا الى التقيد بهذه القيود في ما نبحثه من الاحداث المتقاربة من عهد التاريخ المكتوب .

اما في العهد الحجري القديم فلا تزال اشياء كثيرة غير التي ذكرناها لا يعرف شيء من احوالها ، ويعتبرهـا العلماء سرًا مغلقاً . وليس بين ايدينـا حتى الان ما يفتح لنـا مغـلقاتها او يظهر امامنا طريقة احتالهـا حتى في الامس القريب منا .

وبينما انا اخطّ هذه الاسطر ، وجدنا في كسار عقيل قرني بقر لم يبقَ منها الا اصلاهما ، مع قطعة من جمجمة ملتصقة بكل منهما . وقـد وجد الواحد بجانب الاخر وكأنهما صنعا لغاية ما ، ولكن مهما قلت الآن عنهما فلا يعدو قولي ان يكون ضرباً من التكهن والتخمين .

وهناك اشياء لا يمكننا حلّ رموزها . واشياء اخر لم نعثر قط على اثر لها . مثال ذلك القول ليس من المستحيل ان يكون الانسان قضى الاطوار القديمة لتمدنه دون ان يفكر في صنع بضع آلات خشبية ، ولو قدرنا انه صنعها افما تكون مع مرور الايام قد بليت وعفا اثرها . واذا صح قولنا هذا في الاشياء المادية فكم يكون صحيحاً في الشؤون المعنويـة . مما لا تزال نجهل امره كالنظام الاجتماعي ، ومبادىء العدالة ، وطرق التفكير وغير ذلك .

تلك هي العناصر الهامة التي تبين الفرق الجوهري بين الانسان والحيوان غير الناطق .

ومع ذلك ، يمكننا بقليل من الحصافة وكثير من المعرفة ، ان نقتبس من درجة اتقان الشغل في الآلات بصيصاً من النور حول صناعة العامل ، وباستطاعتنا ، ونحن عائدون الى الازمنة السوالف ، ان نتكهن عن نشأة النظام الاجتماعي ، ونقابل بين البلاد الآهلة والبلاد غير الآهلة ، ومن ذلك نستنتج عقلياً ان الدفن عن سابق تصميم معناه بعض الاعتقاد بحياة اخرى بعد هذه الحياة الدنيا . وان آثار الانسان القديم تشهد مباشرة ببلوغه درجة من الصناعة والفن في محطة من الزمن يمكن الاشارة اليها . وان هذه الحالة ، على ما فيها من صناعة وفن ، لا تؤدي الى ادلة تستدعي اليقين فيما يختص بغير انواع من العادات ، لان تلك الآثار لم تمثل الا تمثيلاً ضئيلاً في مكتشفاتنا . والبرهان على ذلك ان بعض القبائل في يومنا هذا لم تبلغ بعد من الرقي الصناعي والفني

الا درجة حقيرة جدًا ، ومع ذلك فقد تموج فيها مجاري افكار سامية مثلًا فيما يخصّ طبيعة الله[1].

وان رجال العلم لا يجرأون على الاشادة بنظرياتهم فيما يخصّ الانسان الاول، كما لو كانت هذه النظريات ثابتة لا جدل في صحتها ، وهم يحجمون عن الخوض في بحث الامور العائدة الى ما وراء التاريخ ، فيتريثون ولا ينطقون الا بالفطنة، والعاقل يميز في ما يعرفه معرفة الترجيح او اليقين .

الختام

لكل حكاية مغزاها والحكاية الانسان الاول مغزى . اتمنى للقراء ان يقدروا ما يقتضيه مثل هذا الدرس من دقة وتعب ، وان يتخطوا ذلك فينظروا بعين الاحترام الى الانسان الاول ، والى البقايا التي تشهد بصنع يده . فاذا برز شيء منها مثلًا في حفر اساس لبناء بيت ، اصبح من الواجب عليهم ابلاغ الامر حالًا الى دائرة الآثار مقدّمين لها المعلومات الكافية السريعة عن حالة الموضع وعمقه وطبيعة ارضه وتاريخ اليوم الذي حصل فيه الاكتشاف.

ان اثار الزمان الغابر لجديرة بان يحفظها الجيل الحاضر . انها ثمينة في نظر رجال العلم ، وثمينة بذاتها لا من حيث هي تحف من روائع المتاحف ولا من حيث تقديرها بالذهب الاصفر الرنان ، ولكن من حيث انها موادّ يتسع بظهورها ميدان المعرفة عن الانسان القديم وتاريخه .

هذا وان البحث في الانسان بذاته ، بعد البحث في طبيعة الله وتدبيره ، لأغلى من ان تقدر قيمته.

---

١) راجع كتاب العلّامة الاب شميد عن ظهور اول تفكير بالله: Wilhelm Schmidt, *Die Ursprung des Gottesidee.*